

# القدس والنكبة في ذاكرة عارف العارف

عوني فارس\*



عارف العارف.

## عارف العارف... سيرة ذاتية<sup>٢</sup>

ولد عارف شحادة عبد الرحمن مصطفى العارف في القدس عام ١٨٩٢، ودرس في المدرسة الأمومية في القدس، ثم التحق بمدرسة ثانوية في إستانبول عام ١٩٠٦، وتمكن من إكمال دراسته الجامعية فيها متخصصا في الآداب عام ١٩١٣، ونظرا لحاجته الاقتصادية فقد عمل محررا ليليا في صحيفة بيام التركية، وعيّن بعد تخرجه موظفا في قلم الترجمة التابع لوزارة الخارجية العثمانية.

شارك العارف في معارك الدولة العثمانية مع الروس إبان الحرب العالمية الأولى، وأسر في معركة أرضروم الشهيرة التي جرت في الفترة بين العاشر من كانون الثاني والسادس عشر من شباط عام ١٩١٦، بعد أن أيدت كتبته ولم يبق منها سوى أحد عشر مقاتلا، وقد أمضى ثلاثة أعوام في سجنه في سيبيريا، وهناك تعلم اللغتين الروسية والألمانية.

٣ اعتمدت في إعداد موجز سيرة عارف العارف على ما أورده وليد الخالدي في مقدمة الطبعة الثانية لكتاب العارف المذكور أعلاه، وللإستزادة عن حياته يمكن الرجوع إلى العديد من المصادر، ومنها: العودات، يعقوب، من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، عمان، وكالة التوزيع الأردنية، ١٩٧٦، ص ٤٠٠-٤٠٦، تماري، سليم، « مع ناقة الله في سيبيريا: عارف العارف في الأسر الروسي خلال الحرب العالمية الأولى » مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٧٦، خريف ٢٠٠٨، ص ١٠٩-١٢٧.

تسعى هذه الورقة إلى تسليط الضوء على المصير الذي واجهته القدس<sup>١</sup> خلال الفترة ما بين أواخر خريف ١٩٤٧ وصيف ١٩٤٨، والتي أعقبت صدور قرار التقسيم وقرار السلطات البريطانية الرحيل عن فلسطين ودخول المشروع الصهيوني مرحلته الأخيرة لبناء دولة الاحتلال، فيما بات يُعرف لاحقا بأحداث النكبة. وتدرس الورقة كيفية مقاومة الفلسطينيين لسعي الحركة الصهيونية في تلك المرحلة لاحتلال القدس وتفريغ أهلها منها، وما واكب ذلك من تطورات مثل تأسيس حامية المدينة، وآليات دفاعها، ونماذج من الفئات المشكّلة لها، وطبيعة القتال، ودروس الأحداث وعبرها.

وتعتمد الدراسة بشكل أساسي على سرد ما رصده عارف العارف من تفاصيل ما جرى من وقائع وأحداث يوما بيوم وضمّنه في كتابه الشهير النكبة نكبة بيت المقدس والفرديوس المفقود<sup>٤</sup>.

١ صنّف قرار التقسيم الأممي القدس منطقة دولية، وتشمل من الجنوب مناطق بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور وصور باهر وبيت صافا وشرفات ورامات راحيل، ومن الشمال مناطق العيسوية وشعفاط ومستشفى هداسا والجامعة العبرية، ومن الشرق مناطق سلوان والطور والعيزرية وأبو ديس والسواحة، ومن الغرب المالحة والشيوخ بدر ولفتا ودير ياسين وعين كارم.

٢ صدرت الطبعة الأولى للكتاب في سبعة أجزاء في صيدا عن المطبعة العصرية في الفترة ما بين ١٩٥١-١٩٦١، ثم صدرت الطبعة الثانية في ثلاثة أجزاء في بيروت عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠١٢، وقد اعتمدت في ورقتي هذه على الطبعة الثانية.

\* باحث في التاريخ الفلسطيني من سلواد ويحمل الماجستير في الدراسات العربية.

وأطلع على ثقافة المجتمع الروسي. قبل أن يقرر مع مجموعة من الأسرى العرب الفرار من السجن.

وصل العارف فلسطين أواخر شباط عام ١٩١٩. بعد رحلة فرار استمرت ستة أشهر. وبدأ نشاطه في القدس بالانضمام إلى النادي العربي. كما شارك في إصدار صحيفة أسبوعية للنادي باسم «سوريا الجنوبية» وذلك في أيلول عام ١٩١٩. ونشط في إحياء المناسبات الدينية والوطنية. وإثر مشاركته في أحداث النبي موسى إلى جانب الحاج أمين الحسيني عام ١٩٢٠ هرب العارف إلى الأردن. حيث حكمت عليه السلطات البريطانية بالسجن غيابيا لمدة عشرة سنوات. وما لبث أن عاد إلى القدس بعد تعيين هيربرت صموئيل مندوبا ساميا لفلسطين. والذي أصدر عفواً عنه وعن زميله الحاج أمين الحسيني بعد توسط عشائر شرقي الأردن لهما.

تقلب العارف في أكثر من منصب إداري إبان الانتداب وأثناء الحكم الأردني للضفة الغربية، منها قائمقام لأقضية جنين ونابلس وبيسان ويافا. ثم شغل منصب السكرتير العام لحكومة الأمير عبد الله في إمارة شرق الأردن. ثم عاد لفلسطين ليعمل قائمقاما لقضاء بئر السبع فلقضاء غزة، وأخيرا لقضاء رام الله، وعيّن في أواخر الانتداب البريطاني مساعدا لحاكم لواء القدس البريطاني. وهو المنصب الذي بقي يشغله طوال أحداث النكبة، ثم أصبح بعد النكبة رئيسا لبلدية القدس من ١٩٤٨-١٩٥٥. فوزيرا للأشغال العامة لفترة قصيرة جداً في حكومة هزاع المجالي عام ١٩٥٥. ثم عيّن مديرا للمتحف الفلسطيني في القدس ١٩٦٣.

مارس العارف التأليف. وقد نشر عددا من الكتب منها: رؤياي (ألفه سنة ١٩١٨. وصدر عام ١٩٤٣). القضاء بين البدو (١٩٣٣). تاريخ بير السبع وقبائلها (١٩٤٣). تاريخ غزة (١٩٤٣). الموجز في تاريخ عسقلان (١٩٤٣). تاريخ الحرم القدسي (١٩٤٧). المسيحية في القدس (١٩٥١). الموجز في تاريخ القدس (١٩٥١). وقبة الصخرة (بالإنجليزية) (١٩٥١). تاريخ قبة الصخرة والمسجد الأقصى (١٩٥٨). والمفصل في تاريخ القدس (١٩٦١).

ويعتبر كتابه نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود الأكثر أهمية والأوسع شهرة. نظرا لكونه من أوائل الكتب العربية التي أرّخت للنكبة. وامتازت باحتوائها على كم هائل من التفاصيل والمعطيات عن يوميات المواجهات العسكرية والأحداث السياسية بين الطرفين الصهيوني والعربي حتى

غدا الكتاب منذ صدوره مرجعا أساسيا للباحثين الفلسطينيين والعرب. وقد اعتمد العارف في كتابه على العديد من المصادر والمراجع المهمة. وأنكأ على ثقافته العالية وخبرته المبكرة في التأليف. كما منحه المناصب الإدارية التي شغلها في فلسطين فرصة للاطلاع على الكثير من الوثائق والأوراق. وإجراء الكثير من المقابلات مع المسؤولين وصناع القرار السياسيين والعسكريين في أكثر من دولة. وقد انعكس ذلك إيجابا على الكيفية التي تناول فيها القدس وعلى أن يوليها اهتماما كبيرا. ساهم العارف بعد احتلال القدس الشرقية في تأسيس الهيئة الإسلامية العليا، التي حافظت على الأوقاف والمقدسات الإسلامية. وأشرفت عليها. وأقام بقية عمره في مدينة البيرة التي توفي فيها بتاريخ ١٩٧٣/٧/٣٠. وقد ترك خلفه مجموعة يوميات وثق فيها لممارسات وسياسات الاحتلال الإسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة. وللمقاومة الفلسطينية فيها.

## الدفاع عن القدس وتشكيل حاميتها

منح نص العارف مساحة معتبرة لواقع المقاومة العربية في القدس إبان أحداث النكبة. فتطرق للمحاولات الفلسطينية الأولى لجمع السلاح وإعداد المقاتلين. وشرح ظروف تشكيل حامية القدس. ومراحل تطورها. وذكر أسماء قادتها. وطبيعة تسليحها. وتوزيع مقاتليها على الأحياء. وقارن بين قدراتها القتالية وتكتيكاتها العسكرية وما يقابلها في الجانب الصهيوني. وأسهب في الحديث عن أهم المعارك التي خاضتها. وقد لفت العارف الانتباه إلى ضعف استعدادات الفلسطينيين العسكرية. فذكر أنه لم يكن في القدس وأحيائها في نهاية شهر تشرين الثاني من العام ١٩٤٧ أكثر من مائتي مقاتل مسلحين بعتاد خفيف. فبادر المقدسيون إلى

٤ لن تتناول الورقة الانتقادات الموجهة للكتاب سواء فيما يتعلق بمتن النص وما احتواه من معلومات وتفاصيل أو فيما اعتمده من مصادر ومراجع.

٥ سأركز في الحديث عن الحامية. كما ورد ذكرها في كتاب العارف. حتى دخول الجيش العربي مدينة القدس في التاسع عشر من أيار من العام ١٩٤٨.

٦ العارف. عارف. النكبة نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود. بيروت. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ط٢.

تأسيس لجنة للطوارئ لإدارة شؤون المدينة وتوفير احتياجات السكان المادية والدفاعية. وقد تألفت في حينه من أميل الغوري، سعد الدين العارف، غالب الخالدي، راضي أبو السعود، فؤاد عبد الغني الخالدي، وصالح الريماوي.<sup>٧</sup>

ثمّ ما لبثوا أن استعاضوا عنها بلجنة قومية شكّلوها في ٢٦ كانون الثاني ١٩٤٨. تألفت من الدكتور فوتي فريج، الشيخ أسعد الإمام الحسيني، حنا عطاالله، توفيق وفا الدجاني، الحاج طاهر بركات، المحامي تحسين كمال، شريف صبوح، المحامي أنور نسيبة، صالح عبده، الحاج فوزي الخياط، جميل وهبة، يوسف عبده، والمحامي وديع صافي. وقد أضيف لهم خمسة أشخاص يمثلون قرى القضاء<sup>٨</sup>. واتخذت اللجنة مقراً لها في عمارة لدير الروم بين حارة النصارى وباب الخليل، وركزت أعمالها في الشؤون الإدارية وتوفير احتياجات السكان وإسناد الجهد القتالي<sup>٩</sup>.

وحسب العارف، فقد باشر المقدسيون بجمع السلاح عقب صدور قرار التقسيم، فابتعثوا من يشتره من مصر والشام، وقد حصلوا في الأيام الأولى من شهر كانون الأول ١٩٤٧ على أربع وعشرين بندقية قديمة من الشام ومثلها من مصر ثم ازداد العدد فأصبح ثلاثمائة بندقية ومائة مدفع رشاش. ويضع بنادق من طراز تومي<sup>١٠</sup>، كما وصلت شحنة من اللجنة العسكرية في دمشق قوامها ٧٢ بندقية<sup>١١</sup>. وشكّل عبد القادر الحسيني في شهر كانون الأول النواة الأولى للجهد المقدس<sup>١٢</sup>، الذي كان له دور طليعي في الدفاع عن القدس. وبدأ عدد أفراد حامية القدس بالازدياد<sup>١٣</sup> بعد أن التحق بهم عدد من رجال البوليس الفلسطيني الفارين من قطاعاتهم، لكنّ تحولاً جديداً طرأ في منتصف شهر آذار ١٩٤٨

عندما وصلت إلى القدس سرية من سرايا فوج الحسين التابعة لجيش الإنقاذ الذي شكلته جامعة الدول العربية، وكان بقيادة الملازم أول فاضل عبد الله العراقي<sup>١٤</sup>.

وشهد شهر آذار تحسناً في عدد أفراد الحامية، حيث ضمت ما بين ٥٨٦ - ٧٥٠ مقاوماً<sup>١٥</sup>. ونلاحظ من الإحصائية<sup>١٦</sup> التي اعتمدها العارف أنّ حي القطمون كان له النصيب الأكبر من المقاتلين. إذ وصل عددهم إلى ١٢٥ مقاتلاً، وكان العدد الأقل من نصيب حي الشماعة إذ تواجد فيه ١٥ مقاتلاً فقط، كما كان عدد سرية القائد فاضل العراقي المرابطة في الروضة ١٢٣، وربط داخل البلدة القديمة ٨٠ مقاتلاً. أمّا في القرى المحيطة بالقدس فقد تواجد في قرية بيت صفا ٨٠ مقاتلاً، وفي صور باهر ٨٠ مقاتلاً، وفي سلوان ١٤ مقاتلاً، وفي شعفاط ١٣٠ مقاتلاً. كما حدث تطور آخر في الشهر نفسه تمثل في تشكيل الجهد المقدس لفرقة التدمير العربية، وقد ضمت الفرقة ٢٥ مناضلاً<sup>١٧</sup>.

شهد شهر نيسان تراجعاً في كفاءة الحامية وعدد أفرادها خصوصاً بعد معركة القسطل ومذبحة دير ياسين، فأصبح مجموع المقاتلين في المدينة ٣٠٠ مقاتلاً، ستون منهم في القطمون بقيادة إبراهيم أبو دية، وثلاثون في البقعة الفوقا بقيادة شفيق عويس، وأربعون في الشيخ جراح، وخمسون في المصراة بقيادة بهجت أبو غربية، ومائة وعشرون في أنحاء مختلفة يقودهم حافظ بركات<sup>١٨</sup>.

يتحدث العارف عن محاولات تعزيز دفاعات الحامية بعد معركة القسطل، حيث وضعت تحت إمرة آمر فوج البرموك الثالث، التابع لجيش الإنقاذ، العراقي عبد الحميد الراوي، فازدادت عدداً وعدة إلى أن وصلت إلى ما يزيد عن ٢٠٠٠ مقاتلاً في منتصف أيار<sup>١٩</sup>، منهم ٧٠٠ مقاتل تابعين للجهد المقدس، مجهزين بـ ٥٠٠ بندقية، و ١٠٠ رشاش من طراز ستن، و ٧٠ من طراز برزن، و ١٥ بندقية مضادة للدبابات، و ١٥ مضادة للطائرات، وسبع مصفحات، وعدد قليل من

٢٠١٢، ص ٢٨.

٧ المصدر نفسه، ص ٨٩.

٨ المصدر نفسه، ص ٨٩.

٩ المصدر نفسه، ص ٨٩.

١٠ المصدر نفسه، ص ٢٨.

١١ المصدر نفسه، ص ٣٢.

١٢ حول تفاصيل تشكيل نواة الجيش المقدس بقيادة القائد الشهيد عبد القادر الحسيني في ١٢/٢/١٩٨٧، انظر المصدر نفسه، ص ٦٨-٦٩.

١٣ امتازت الحامية طوال فترة القتال بتذبذب عدد أفرادها تبعاً للمعطيات على الأرض وتطور الأحداث، لكنها كانت على الدوام أقل من القوات الصهيونية العاملة في القدس.

١٤ العارف، مصدر سابق، ص ١١١.

١٥ المصدر نفسه، ص ١٤٣.

١٦ المصدر نفسه، ص ١٤٣.

١٧ المصدر نفسه، ص ١٢٨.

١٨ المصدر نفسه، ص ١٧٣-١٧٤.

١٩ المصدر نفسه، ص ٣١٦.



القدس خلال حرب ٤٨ - أسير يهودي بعد سقوط الحي اليهودي.

وأحرق اليهود سينما ركس العربية في شارع الأميرة ماري. في حين أشعل الفلسطينيون النار في المخازن اليهودية بسوق الشماعة فاحترق معظمها. واحترقت عشرون عمارة من العمارات الكائنة في الحي المذكور. ولعب البريطانيون في ذلك الوقت دورا تحريضيًا. إذ أخذوا يحرضون العرب في سوق الشماعة ويحرضون اليهود في شارع مأمّن الله<sup>٨</sup>.

عمل الفلسطينيون في تلك المرحلة على وضع الحواجز والمتاريس في المداخل والزوايا والمنعطفات. وعرقلة سير السيارات اليهودية التي تنقل البوتاس من البحر الميت. وحاولوا قطع الاتصال بين الأحياء اليهودية في القدس والتجمعات اليهودية خارجها. وقطع الماء والكهرباء والهاتف عن الأحياء اليهودية<sup>٩</sup>. في المقابل كثّف الصهاينة الحراسات على قوافلهم التي تسير بين القدس وتل أبيب. وهاجموا الأحياء العربية. ونسفوا بعض بيوتها. وقطعوا الأسلاك الكهربائية والتلفونية. وحاولوا الاستيلاء على ضواحي المدينة ومدخلها بهدف عزلها عن باقي المدن الفلسطينية. واستخدموا تكتيكا أكثر عنفا وأذية للمقدسيين. لدفعهم إلى الرحيل. مثل قيام منظمة الإريغون بتاريخ ٢٩ كانون أول ١٩٤٧ بتفجير برمبيل بارود بباب العمود أدى إلى مقتل ١٤ فلسطينياً<sup>١٠</sup>. كما عملت العصابات الصهيونية على نسف عدد من المباني والعمارات مثل

٢٨ المصدر نفسه. ص ٣١.

٢٩ المصدر نفسه. ص ٦٦.

٣٠ المصدر نفسه. ص ٧٣.

مدافع الميدان بريدا والهاون عيار بوصتين وثلاث بوصات<sup>١١</sup>.

أمّا فوج اليرموك الثالث فضم ٥٠٠ مقاتل أغلبهم أكراد وجراكسة وعراقيين وسوريين وفلسطينيين. وعسكر في المدينة أيضا سرية من الإخوان المسلمين قدمت من سوريا مكونة من ٨٥ مقاتلاً يقودها الشيخ مصطفى السباعي وجمال الصوفي وعبد الرحمن الملوحي. إضافة إلى سرية منكو (نسبة إلى ممولها المحسن إبراهيم منكو) للمتطوعين الأردنيين التي ضمت ١٥٠ مقاتلاً<sup>١٢</sup>. وضمت حامية القدس أيضا مجموعة مكونة من ٥٢٠ مقاتلا من المناضلين الفلسطينيين قادهم طارق الأفريقي. وقوة من ٣٠٠ شخص تابعة للبوليس البلدي. إضافة إلى ٢٠ حارسا من حراس الحرم و٥ من الشرطة النظامية<sup>١٣</sup>. وكان في القطاع الجنوبي للمدينة -تحديدا في البلدات المجاورة للقدس مثل بيت لحم وبيت جالا وصور باهر وبيت صافا- ٨٠٠ مقاتل. بينهم متطوعون عرب يقودهم أحمد عبد العزيز. كما ضم القطاع الشمالي ٤٠٠ مقاتلاً<sup>١٤</sup>.

## القتال في القدس

جاء اندلاع المواجهات في القدس. برأي العارف. ردة فعل على الاعتداءات الصهيونية على المقدسيين. واستخدام الصهاينة لما وصفه بوسيلة «المباغثة والضرب والهرب»<sup>١٥</sup>. فكان لزاما على الفلسطينيين «كبح جماحهم»<sup>١٦</sup> وصد عدوانهم. وحسب العارف فقد اندلع القتال بداية في سوق الشماعة<sup>١٧</sup> في ١٢/٢/١٩٤٧. حيث قتل يهودي وجرح ستة آخرون.

٢٠ المصدر نفسه. ص ٣١٧-٣١٨.

٢١ المصدر نفسه. ص ٣١٨.

٢٢ المصدر نفسه. ص ٣١٩-٣٢٠.

٢٣ المصدر نفسه. ص ٣٢٠-٣٢١.

٢٤ المصدر نفسه. ص ٦٥.

٢٥ المصدر نفسه. ص ٦٥.

٢٦ المصدر نفسه. ص ٣١. ذكر العارف حادثا آخر وقع في الشيخ جراح في اليوم التالي لصدور قرار التقسيم. حيث أُلقت مجموعة مكونة من خمسة طلاب مدارس قنبلة على باص يهودي. فجرح يهوديان. ويعتقد العارف أنّ هذا الحادث كان عملا فريدا «ولا يستند إلى قرار من أية منظمة من المنظمات القومية» ص ١٧٧.

٢٧ هنالك خلاف بين المؤرخين على من يتحمل مسؤولية اندلاع القتال في القدس وباقي المناطق في تلك الفترة.

وارتفعت الأسعار إلى درجة لا تطاق. فبيعَت أوقية اللحم عندهم بجنيه فلسطيني. و صفيحة البترول باثني عشر جنيهاً. فقطع اليهود أشجار الحدائق والبساتين واستعملوها للإنارة والوقود»<sup>٤٠</sup>.

وأصبح حال الصهاينة لا يطاق. وشهدت شوارع القدس مظاهرات صهيونية صاخبة في نيسان ١٩٤٨<sup>٤١</sup> تطالب بوقف القتال. وبدأ كثيرون بالرحيل عن القدس باتجاه تل أبيب. حتى بلغ عدد الراحلين عنها قبل الهدنة الأولى حوالي ٤٠ ألفاً<sup>٤٢</sup>.

## الانسحاب البريطاني وتقدم الصهاينة

رغم ما مُني به الفلسطينيون من خسائر في شهر نيسان، إلا أنهم كانوا ما يزالون يمتلكون زمام المبادرة. فاستمروا في توجيه الضربات للمواقع الصهيونية، وتشديد الحصار عليها، لكن تحولاً ميدانياً كبيراً لصالح الصهاينة طرأ في شهر أيار ١٩٤٨، خصوصاً مع زيادة تعزيزاتهم العسكرية تمهيداً لليوم التالي للانسحاب البريطاني من القدس. وما تلاه من توقيع الهدنة الأولى.

ويروي العارف في كتابه كيف قام الصهاينة بزيادة قوتهم بفرض ضرائب جديدة على اليهود مثل ضريبة «الدفاع عن أنفسنا» وهي عشرة من المئة من دخل كل يهودي في الشهر. وضريبة «الشراء» وهي أربعة ملات من كل شيء يشتريه المرء بثمن يزيد عن مئتي مل. ودعوة جميع الشبان والشابات والرجال والنساء اليهود من سن السادسة عشرة إلى الخامسة والخمسين للانخراط في صفوف الهاغاناة. واستخدام الصبية والمراهقين في بناء الخنادق والحصون. وإنشاء مطار صغير على أرض دير ياسين تطير منه وتعود إليه طائرة صغيرة. كانت الوسيلة الوحيدة التي تربطهم ببني قومه المنتشرين في السهل الساحلي<sup>٤٣</sup>.

«ونشر القوم كراريس كتب عليها آيات من أسفار العهد القديم، بينها ما جاء في سفر إشعيا: على أسوارك يا أروشليم، وفيها حث وتحريض على

٤٠ المصدر نفسه، ص ١٩٣.

٤١ المصدر نفسه، ص ١٤٥. قدر العارف عدد اليهود في القدس في ذلك الوقت بـ ١٠٠ ألف، وعدد مقاتليهم بـ ٢٠٠٠ مقاتل من الهاغاناه والإرغون.

٤٢ المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣.

٤٣ المصدر نفسه، ص ١٩٣.

محاولتها نسف عمارة الوقف القريبة من النوتردام في ٢ كانون ثاني ١٩٤٨؛ ونسف فندق سميراميس في حي القطمون بتاريخ ٥ كانون ثاني، والذي قامت به الهاغاناة، وأدى لمقتل ١٨ فلسطينياً؛ وتفجير برمبل متفجرات بين جموع الفلسطينيين بباب الخليل في ٧ كانون الثاني، مما تسبب بمقتل ١٩ منهم؛ وقيام الهاغاناة بنسف مطحنة «اشتكلف» في بيت صفافا في ٧ كانون الثاني<sup>٣١</sup>.

وقد رد الفلسطينيون على هذه الأعمال بالهجوم على الأحياء اليهودية ونسف بعض شوارعها، مثل نسف شارع هاسوليل بتاريخ ١ شباط ١٩٤٨، ونسف شارع بن يهودا في ٢٢ شباط<sup>٣٢</sup>. ونسف دار الوكالة اليهودية في شارع الملك جورج في ١١ آذار<sup>٣٤</sup>.

وجرت بين الطرفين معارك ضارية مثل معركة سنهدريا شمال المدينة في ١٠ كانون الثاني<sup>٣٥</sup>. ومعركة بيت سوريك شمال غرب المدينة في ٢٥ كانون الثاني<sup>٣٦</sup>. ومعركة كفار عتسيون الأولى في ١٤ كانون<sup>٣٧</sup>. وحاصر الفلسطينيون الحي اليهودي في البلدة القديمة<sup>٣٨</sup>. وجرت حوله العديد من المواجهات المسلحة. وحاولت بريطانيا منع سقوطه، وحسب العارف فقد كانت «المؤن تنقل إلى ذلك الحي بحراسة الجند وما كانت هذه لتكفيهم فأشرفوا على الهلاك، ونصحت الحكومة (بقصد البريطانية) اليهود أن يخلوا هذا الحي والحي التجاري في الشماعة، كما نصحتهم أن ينسحبوا من مستعمراتهم في جنوب فلسطين»<sup>٣٩</sup>.

اشتد الحصار على الأحياء اليهودية «إلى درجة تعطلت جميع المصالح، وأغلقت المحاكم أبوابها، ورفض القضاة الذهاب إلى دار العدل كما رفض المحامون، وكذا قل عن الأطباء والمؤسسات الصحية، وسائر الموظفين، حتى رجال الأمن.

٣١ انظر تفاصيل هذا الشكل من الهجمات في المصدر نفسه، ص ٧٣-٧٧.

٣٢ انظر تفاصيل ذلك في المصدر نفسه، ص ٩٣-٩٤.

٣٣ انظر تفاصيل ذلك في المصدر نفسه، ص ١٠٧-١٠٩.

٣٤ انظر تفاصيل ذلك في المصدر نفسه، ص ١٢٤-١٢٥.

٣٥ انظر تفاصيل ذلك في المصدر نفسه، ص ٧٨-٧٩.

٣٦ انظر تفاصيل ذلك في المصدر نفسه، ص ٨١-٨٨.

٣٧ انظر تفاصيل ذلك في المصدر نفسه، ص ٧٨-٧٩.

٣٨ بدأ الحصار في ٢ كانون ثاني واستمر إلى أن سقط الحي بيد العرب في ٢٨ أيار، وقد تناول العارف تفاصيل الحصار وتداعياته في أكثر من موقع في الكتاب مثل ص ٧٣ و ٩١.

٣٩ المصدر نفسه، ص ٩١.





القدس خلال حرب ٤٨.

## الريفيون الفلسطينيون والدفاع عن القدس

أظهر نص العارف الحجم الكبير للمشاركة الريفية في الدفاع عن القدس. خصوصاً قرى القدس ورام الله والخليل وبيت لحم، فلم يرفد الريفيون الجهاد المقدس بالمقاتلين فقط. بل بعناصر قيادية لعبت دوراً عسكرياً محورياً سواء في البلدة القديمة أو الأحياء العربية خارج السور. ناهيك عن تكوينهم لحاميات قرى القدس. وكونهم العمود الفقري لتشكيلات عسكرية عشوائية عُرِفَت بالنجدات والفرعات والتي كانت على أهبة الاستعداد لنجدة المقاتلين في أغلب مواقع المواجهات.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن النواة الأولى لجيش الجهاد المقدس تشكلت بعد قرابة الشهر من صدور قرار التقسيم في قرية صوريف. قضاء الخليل. وشكل القرويون كل عناصرها الـ ٢٥ باستثناء مقاتل واحد. فكان من بينهم سبعة عشر مقاتلاً من صوريف. وثلاثة مقاتلين من دورا. وواحد من لفتا. وواحد من زكريا. وواحد من بيت أولا. وواحد من بيت نوبا. وواحد من القدس.<sup>٤٨</sup>

وكان أغلب قادة الجهاد المقدس من الريفيين. فأمين السر قاسم الرماوي<sup>٤٩</sup> من قرية بيت ريبا.

٤٨ حول تفاصيل تأسيس هذه المجموعة وأسماء مقاتليها. انظر المصدر نفسه. ص ١٨-١٩.

٤٩ حول سيرته الذاتية. انظر المصدر نفسه. ص ١٥١.

القتال حتى النصر»<sup>٤٤</sup> كما أخذوا بتعزيز قواتهم. حتى أصبح عددها في منتصف أيار. حسب مختلف التقديرات. ما بين ٧٥٠٠-١١ ألف مقاتل<sup>٤٥</sup>.

انعكس هذا الجهد على ميدان القتال. فاحتل الصهاينة جانباً «من فندق داروتي ونسفوا الجانب الآخر. كما احتلوا كنيسة الخضر الأرثوذكسية وفندق الأوقاف المقابل لمقبرة مقبرة مأمّن الله والمستشفى الإيطالي وكلية ترسانطة والطالبة وعمارة داود ودار الإذاعة الفلسطينية ومدرسة البوليس في حي الشيخ جراح. وما كاد النهار ينتصف حتى خلت الشوارع العامة خارج السور من الناس فما كنت ترى من ساحة بنك باركليز حتى باب العمود ومنها إلى باب الخليل إنساً ولا جان»<sup>٤٦</sup>. ومع بدء سريان الهدنة الأولى. أكمل مشهد التحولات الكبرى دورته. فأصبح الفلسطينيون خائفين. «فرحل معظم العرب. سكان القدس القديمة. عن مدينتهم. حتى لم يبق منهم فيها خلال الأسابيع الأولى للهدنة سوى عدد لا يزيد عن الخمسة آلاف. بعد أن كان عددهم خمسة وستين ألفاً. فريق منهم. هم الخلايلة. رحلوا إلى منازلهم الأصلية في الخليل. وفريق رحل إلى شرق الأردن. والباقيون تبعثروا في المدن الفلسطينية الباقية بيد العرب. ك نابلس وأريحا ورام الله وغزة والخليل. ولم يبق في المدينة سوى الشيوخ والعجزة وغير القادرين على الرحيل.

وأصبحت القدس خلال الهدنة في حالة رهيبية: مخازنها مغلقة. ومعظم منازلها متهدمة. وشوارعها مهجورة. ووسائل النقل عريضة. والأجور غالية. ذلك لأن البنزين مفقود. وكذلك قل عن سائر أنواع الوقود. وبلغت أجرة السيارة من القدس إلى أريحا عشرين جنيهاً. ومنها إلى عمان ثلاثين وأربعين جنيهاً. ومما يجدر ذكره أن الرحيل من بابين من أبواب المدينة: إحداهما باب الأسباط وقد مر منه النازحون إلى أريحا وشرق الأردن. والثاني الساهرة. وقد مر منه النازحون إلى رام الله ونابلس»<sup>٤٧</sup>.

٤٤ المصدر نفسه. ص ١٩٣.

٤٥ حول تقديرات القوات الصهيونية مجتمعة في القدس وغيرها من المناطق. انظر المصدر نفسه. ص ٣٢٣-٣٢٤.

٤٦ المصدر نفسه. ص ٣٢٧-٣٢٨.

٤٧ المصدر نفسه. ج ٢. ص ١٣.



القدس خلال حرب ٤٨ - مقاتلون على أسوار المدينة.

صوريّف. وحسب العارف، فقد أبلى عوض محمود الترمسعوي في تلك المعركة بلاءً حسناً. حتى أنّه «قتل في تلك المعركة سبعة من اليهود بصليّة واحدة من رشاشه»<sup>٥١</sup>. وقد أفلحت النجيدات القادمة من تلك القرى، والتي بلغ عددها، حسب العارف، ألف مقاتل<sup>٥٧</sup>. في حسم المعركة لصالح الفلسطينيين. وكان من بين المقاتلين في معركة شعفاط التي جرت في ٢٤ آذار ١٩٤٨ مجموعات من قرى حزما وعناتا والمزرعة الشرقية ومزارع النوباني وترمسعيا<sup>٥٨</sup>. وشارك في معركة القسطل التي امتدت ما بين ٣-٩ نيسان عدد من قرى رام الله يقودهم صبحي أبو جبارة، وعبد الفتاح المزرعاوي. حيث عسكر في قطاع قالونيا<sup>٥٩</sup>. ولعب الريفيون دوراً في صدّ العديد من الهجمات الصهيونية على الأحياء العربية، مثال ذلك ما ذكره العارف حول ما جرى عندما هوجم حي الشيخ جراح فجاءته نجيدات من قرى رام الله مثل سلواد وترمسعيا وسنجل وجلجلية وعبوين والمزرعة الشرقية<sup>٦٠</sup>.

وكامل عبد الرحمن عريقات<sup>٥٠</sup> نائب عبد القادر الحسيني، القائد العام للجيش، من أبو ديس، وإبراهيم أبو دية<sup>٥١</sup> الساعد الأيمن له من صوريّف، وحارس القائد العام عوض محمود الترمسعوي<sup>٥٢</sup> من ترمسعيا، ناهيك عن حاميات قرى القدس التي لعب قادتها دوراً مهماً في القتال مثل عبد الله العمري<sup>٥٣</sup> قائد حامية بيت صافا.

وكان من التشكيلات العسكرية المقدسية التي انضوى تحتها عدد من الريفيين منظمة الشباب العربي التي نشطت في القدس، وكانت تضم ١١٥ شاباً منهم ١٩ قروياً من قرى القدس ورام الله، وقوات البوليس البلدي التي كانت تحت إمرة الضابط سليمان عازر من بيرزيت، وضمت ١٢٥ مقاتلاً<sup>٥٤</sup>. وقد شارك الريفيون في المعارك الضارية في القدس ومحيطها مثل معركة سنهدريا، التي شارك فيها جماعة من سكان قرى رام الله كسنجل وترمسعيا وبيتونيا والمزرعة الشرقية، وبرز فيها كامل عريقات وعبد الفتاح المزرعاوي وإبراهيم أبو دية<sup>٥٥</sup>. وشارك في معركة بيت سوريك مقاتلون من قرى رام الله مثل سنجل وترمسعيا وقرى الخليل مثل

٥٠ حول سيرته الذاتية، انظر المصدر نفسه، ص ١٣٦.

٥١ حول سيرته الذاتية، انظر المصدر نفسه، ص ٢٨٤.

٥٢ حول سيرته الذاتية، انظر المصدر نفسه، ص ١٥٣.

٥٣ حول سيرته الذاتية، انظر المصدر نفسه، ص ٧٢.

٥٤ المصدر نفسه، ص ٤٢٣.

٥٥ المصدر نفسه، ص ٧٩.

٥٦ المصدر نفسه، ص ٨٧.

٥٧ المصدر نفسه، ص ٨٧.

٥٨ المصدر نفسه، ص ١٣٣.

٥٩ المصدر نفسه، ص ١٥٤.

٦٠ المصدر نفسه، ص ١٢٦.

## مشاركة المتطوعين العرب في الدفاع عن القدس

ويلاحظ إغفال العارف لذكر أي دور عسكري ميداني خاص للإخوان المقدسيين أسوة ببعض المدن الفلسطينية<sup>١١</sup>. رغم وجود بعض الشواهد على ذلك<sup>١٧</sup>. ويبدو أن مرد ذلك عائد إلى جملة من الأسباب: منها: حداثة نشأة الجماعة التي تأسس فرعها في القدس عام ١٩٤٥. على يد نخبة قيادية انصبت تجربتها على الجوانب السياسية والفكرية والتعليمية<sup>١٨</sup>. وعدم تأسيسها لفصيل إخواني مستقل<sup>١٩</sup> وتفضيلها الانخراط في التشكيلات العسكرية المحلية وتحديدًا الجهاد المقدس<sup>٢٠</sup>. ناهيك عن أن المجموعات العسكرية الإخوانية التي قدمت من الدول العربية المجاورة حازت على اهتمام أكبر من جمهور المقدسيين إضافة إلى الباحثين والكتّاب<sup>٢١</sup>.

ذكر العارف المشاركة الإخوانية في أكثر من معركة منها معركة صور باهر التي وقعت في ١٧ شباط ١٩٤٨ حيث شارك جزء من جماعة الإخوان في الأردن بقيادة عبد اللطيف أبو قورة. والإخوان

«من ذكرياتي عن العام ١٩٤٨. «حوليات القدس، العدد ١٣، صيف ٢٠١٢، ص ٥٠-٤٧».

١١ شهدت بعض المدن الفلسطينية مشاركة ميدانية عسكرية فاعلة للإخوان المسلمين الفلسطينيين في المجهود الدفاعي المقاوم مثل مدينة يافا. وقد فصل العارف هذه المشاركة في كتابه ص ٢١٨-٢٥٧.

١٧ من الشواهد على المشاركة العسكرية لإخوان القدس دور الصحفي الفلسطيني وعضو المكتب الإداري لإخوان القدس شكري قطينة في القتال واستشهاده أثناء مواجهة عسكرية ساخنة في حي الشيخ جراح وذلك بتاريخ ١٣ نيسان ١٩٤٨. ونشير هنا إلى ابن الصحفي شكري قطينة واسمه بدر استشهد في التفجير الذي اقترفته القوات الصهيونية عند باب العمود بتاريخ ٢٩ كانون أول ١٩٤٧.

١٨ حول طبيعة قيادات فرع الإخوان في القدس راجع: محسن صالح، مصدر سابق، ص ٧٠-٧٢.

١٩ كان بإمكانهم ذلك نظراً لكثرة عدد منتسبيهم حيث وصل إلى ١٠٠٠ شخص وكذلك كون عدد منهم من التجار القادرين.

٢٠ هنالك حفاوة بالغة في الأدبيات الإخوانية بالمفتي الحاج أمين الحسيني وبالقائد عبد القادر الحسيني. ويبدو أن العلاقة الطيبة معهما وخلفتيهما الدينية وخصوصية القدس التي كانت بحاجة إلى توحيد الجهود دفعت الإخوان المقدسيين إلى العزوف عن تشكيل فصيل عسكري مستقل والانضمام للتشكيل العسكري الذي كونه عبد القادر الحسيني في تلك الفترة.

٢١ ضمت هذه المجموعات في قيادتها عدداً من رموز جماعة الإخوان وقاداتها التاريخيين في بلاد الشام مثل مصطفى السباعي المراقب العام للجماعة في سوريا وعبد اللطيف أبو قورة المراقب العام للجماعة في الأردن.

تناول العارف في كتابه مشاركة قوات جيش الإنقاذ الذي ضمّ في صفوفه مجموعات من المتطوعين العرب الذين قدموا من دول مختلفة. وذكر أيضاً وجود عشرة متطوعين من حركة مصر الفتاة. حيث شاركوا في الدفاع عن حي الثوري<sup>١١</sup>. وقد أفرد العارف مساحة واسعة في كتابه للمشاركة الفاعلة لمتطوعي جماعة الإخوان المسلمين القادمين من مصر وسوريا والأردن في الدفاع عن القدس. ورصد بعض تفاصيل ورموز المجهود القتالي الإخواني ممثلاً بمجموعات عسكرية رابطة في المدينة ودافعت عن أحيائها كالمقطمون والشيخ جراح والبلدة القديمة.

وقد ساهم الإخوان المسلمون المقدسيون<sup>١٢</sup> في الدفاع عن القدس. ويمكن استنتاج ذلك من خلال تتبع قوائم اللجان المحلية التي نشطت في تلك الفترة، إذ تُظهر القوائم التي ذكرها العارف وجود بعض رموز الإخوان فيها. فقد شارك في عضوية اللجنة القومية<sup>١٣</sup> من الإخوان المقدسيين الشيخ محمد أسعد الإمام الحسيني والحاج طاهر بركات وشريف صبوح وجميل وهبة وعيد عابدين. وبرز في لجنة الطوارئ الإخواني سعد الدين العارف<sup>١٤</sup>. وقد سجّل العارف بعضاً من الأعمال التي قام بها الإخوان المقدسيون في تلك الفترة. مثل إقراض الهيئة العربية العليا ٢٥٠٠ جنيه كانت الجماعة قد جمعتها سابقاً لبناء مقر لها في القدس. لتستعملها الهيئة في شراء السلاح<sup>١٥</sup>.

١١ المصدر نفسه، هامش صفحة ٤٤٢.

١٢ حول تفاصيل نشأة فرع جماعة الإخوان المسلمين في القدس وأهم رموزه ونشاطاته في المدينة قبل عام ١٩٤٨. انظر: صالح، محسن، «أضواء وثائقية على جماعة الإخوان المسلمين في القدس سنة ١٩٤٦»، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٥٨، ربيع، ٢٠٠٤، ص ٦٧-٨٣.

١٣ انظر تفاصيل نشأة وعضوية القوائم كاملة في العارف، مصدر سابق، ص ٨٩.

١٤ حول انتماء هؤلاء إلى جماعة الإخوان ونشاطهم فيها. انظر: محسن صالح، المصدر السابق، ص ٦٧-٨٣.

١٥ العارف، مصدر سابق، ص ١٧٠. تظهر بعض الأحداث المتعلقة بمقر الجماعة جانباً من نشاطاتها المساندة للمجهود الفلسطيني المقاوم مثل تردد عبد القادر الحسيني على مقر الجماعة الكائن في منزل رجائي سعيد الحسيني أثناء تصاعد الأحداث، ومحاولة نسفه من قبل الصهاينة. ووضع الفلسطينيين الحراسة عليه، وتحويله لاحقاً إلى مقر للجهاد المقدس. انظر: الحسيني، سعيد إبراهيم.





صورة اخذت في القاهرة عام ١٩٤٨. وتضم مجموعة من متطوعي الاخوان المسلمين مع الحاج امين الحسيني. يظهر على يسار الحاج أمين مباشرة الشيخ مصطفى السباعي

المتقنين. اشتركوا في معارك الحي القديم وفي القسطل والقطمون وفي الحي الأخير هذا استشهد منهم كثيرون»<sup>٧١</sup>

## هل كان للعارف دورٌ في الدفاع عن القدس؟

قلما يشير العارف في الكتاب إلى دوره في الدفاع عن القدس. ولكن يستدل من مراجعة النص إلى أنه اقتصر على إجراء بعض الاتصالات لتوفير دعم للمقاومة الفلسطينية، أو للتخفيف عنها أثناء اشتداد المعارك. فقد استغل العارف موقعه الوظيفي وعلاقاته في سبيل ذلك. ويبدو أن جل اتصالاته كانت مع الجيش العربي (الأردني)، ويرجع ذلك إلى موقع الجيش القريب من القدس. وإلى قوة هذا الجيش مقارنة بالتشكيلات الفلسطينية. والعلاقة التي ربطت بعض قياداته العربية بالعارف نفسه وتحديدًا قائد اللواء الرابع أحمد صدقي الجندي.

٧١ المصدر نفسه، ص ٣١٨.

المصريين بقيادة اليوزباش محمود عبده الذي عُهد إليه بقيادة حامية القرية. ثم خلفه في قيادتها الملازم خالد فوزي<sup>٧٢</sup>. «الذي بذل جهداً كبيراً لصد هجمات الصهاينة عنها. وقد أخرجهم من المرتفع المطل عليها والمعروف بتبة اليمن. عندما هاجمها اليهود في ١٩ تشرين أول»<sup>٧٣</sup>

وحسب العارف. فقد زاد اهتمام الإخوان المسلمون في القدس. فوصلت إليها أفواج جديدة من مقاتليهم منها مجموعة مكونة من ستين مقاتلاً من عمان وصلت القدس في شهر نيسان وتمركزت على جبل الرب المطل على عين كارم<sup>٧٤</sup>. ناهيك عن سرية من إخوان سوريا مكونة من ٨٥ مقاتلاً يقودها الشيخ مصطفى السباعي وجمال الصوفي وعبد الرحمن الملوحي<sup>٧٥</sup>. ويبدو بأن سرية إخوان سوريا قد نالت إعجاب العارف. فأشاد بها ووصف أفرادها بأن «جلهم إن لم نقل كلهم من الأسر المرموقة في سورية ومن حملة الشهادات

٧٢ العارف، مصدر سابق، ص ١٠٧.

٧٣ المصدر نفسه، ص ١٠٧.

٧٤ المصدر نفسه، ص ١٨٩.

٧٥ المصدر نفسه، ص ٣١٨.

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره عن دوره أثناء معركة القسطل. إذ فشلت اتصالاته مع رجال الجيش العربي المرابطين في رام الله، وفي مقدمتهم أحمد صدقي الجندي وغلوب باشا<sup>٧٧</sup>. في دفع قطاعات من الجيش العربي لنجدة المقاتلين في قطاع القسطل أو التخفيف عنهم، ولكنّها نجحت في إقناع أحمد صدقي الجندي بإرسال بضعة أفواج من الجيش العربي للقيام باستعراض عسكري في شوارع القدس للحيلولة دون استغلال الصهاينة للفراغ العسكري داخل المدينة الذي أحدثه استنفار المقاتلين الفلسطينيين للمشاركة في معركة القسطل<sup>٧٨</sup>. كما أجرى العارف بعض الاتصالات مع جيش الإنقاذ، حيث ذهب مع وفد من المدينة إلى قرية جبع، قضاء جنين في شهر نيسان للطلب من فوزي القاوقجي التعجيل في إرسال مساعدة عسكرية للمدينة، والتقدم نحو أكمة النبي صموئيل للسيطرة عليها لما لها من أهمية استراتيجية، وكان له وللوفد ما طلب<sup>٧٩</sup>.

## عارف العارف ونقد المرحلة

يظهر من النص أن تسجيل الأحداث بتفاصيلها المختلفة قد أخذ جل اهتمام العارف، لكن ذلك لم يمنع من تسطيره لمحاولة، ولو متواضعة، لتقويم الأداء الفلسطيني والعربي واستخلاص الدروس والعبر مما فات، والإجابة على سواء لماذا هزمتا وتقدم عدونا؟ فتركز نقده للتجربة على سرد بعض المظاهر السلبية والتعليق عليها في جمل غلّفها بإحساس عارم بالمرارة، تحاكي نبض الشارع، وتنطق بما يجول في خاطر الفلسطينيين منذ وقوع النكبة إلى الآن.

بدأ العارف بوضع ملاحظاته على التجربة الفلسطينية منذ الصفحات الأولى من كتابه، فوجه انتقاده لإحجام الحركة الوطنية عن الاستعداد للحظة المواجهة الشاملة مع الحركة الصهيونية. وقال عن ذلك: «قضينا ثلاثين عاماً نقول ولا نفعل. نؤلف للجان والجمعيات، ونقيم المؤتمرات والمظاهرات ونكتب المقالات والاحتجاجات دون أن

٧٧ المصدر نفسه، ص ١٥٠.

٧٨ المصدر نفسه، ص ١٥٥.

٧٩ المصدر نفسه، ص ١٧٥.

نردف هذا كله، أو بعضه، بالعمل الصالح المجدي فلم نشتر السلاح إلا أقله، ولم ندرب على الأعمال العسكرية من شبانا سوى الأقلين، ولم نعمل بالآية الكريمة التي وردت في قرآننا «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم...»<sup>٨٠</sup>.

تناول العارف قضايا محدّدة اعتقد أنّها أخطاء ارتكبت وتسببت بالهزيمة، فقد استنكر على قيادة الحركة الوطنية، وعلى رأسها الحاج أمين الحسيني، سلوكها أثناء المواجهات والتي عبّرت عن تفشي روح العائلية والشخصنة في صناعة القرار الفلسطيني. مثلما حدث من تعيين خالد شريف الحسيني خلفاً لعبد القادر الحسيني والذي لم يكن أهلاً للموقع فقد كان يوجد من هو أفضل منه<sup>٨١</sup>. واستهجن امتناع الحاج أمين عن الدخول إلى فلسطين وقد كانت البلاد في أمس الحاجة إليه<sup>٨٢</sup>. ورفضه استخدام الكثير من عناصر البوليس الفلسطيني الذين أبدوا استعداداً للقتال ضد الصهاينة<sup>٨٣</sup>. ناهيك عن خلافاته مع اللجنة العسكرية في دمشق وباقي القادة والزعماء العرب<sup>٨٤</sup>.

ولم يقصر العارف نقده على القيادة السياسية للشعب الفلسطيني، بل شنّ هجوماً عنيفاً على طبقة الأغنياء الفلسطينية، حيث اتهمها بالتقصير في الدفاع عن القدس، ويورد أمثلة على إحجامها عن المشاركة في التكاليف المالية، ناهيك عن إحجامها عن المشاركة الفعلية في المعارك، منها ما سجله من مواقفها في حي الشيخ جراح. إذ يقول: «فرضوا على كل ذكر من سكان الحي أربعة جنيهات، فدفّع بعضهم ما طلب منه ومعظم الدافعين من الفقراء، وغادر البعض الآخر الحي قبل أن يدفع ما عليه ومعظمهم من الأغنياء. وإن ما جرى في الحي جرى مثله في القطمون والنبي داود وفي معظم الأحياء الأخرى. إذ هب للنجدة فريق، وقعد آخرون. وفي ذلك ورد قوله تعالى: «وإذا انزلت سورة أن

٨٠ المصدر نفسه، ص ٢٩.

٨١ المصدر نفسه، ص ١٧٢.

٨٢ المصدر نفسه، ص ١٧٢.

٨٣ المصدر نفسه، ص ٩٦.

٨٤ يتعرض العارف في أكثر من موقع في الكتاب إلى هذه الخلافات، ويشير، كما في الصفحتين ٣٩-٤٠، إلى أن مرد ذلك عائد لعدة أسباب أبرزها اقتناع المفتي أن بإمكان الفلسطينيين القيام بمهمة الدفاع عن فلسطين وحدهم وما على العرب إلا أن يمدوهم بالسلاح والمال فقط.

آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين. رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون»<sup>٨٥</sup>. ويقول العارف أيضا في معرض حديثه عن معارك القطمون: «ولكن الأغنياء من سكان هذا الحي لم يعدوا للأمر عدته. وكان بإمكانهم أن يفعلوا ذلك لو شأؤوا. إذ إنهم - وإن شئت فقل معظمهم- من الثراء على جانب عظيم، ولكنهم بدل من أن يثبتوا في أماكنهم ويضحوا بجزء يسير من أموالهم فيؤلفون فرقة من الحرس للذود عن حيهم. راحوا ينزحون عن الحي»<sup>٨٦</sup>.

امتد نقد العارف ليشمل المقاتلين أنفسهم. فقد استنكر بعض الممارسات التي ارتكبتها المقاتلون في تلك الفترة مثل حالات السلب والنهب التي كان يقوم بها البعض لمواقع الصهاينة بعد انسحابهم. مثل ما حصل في القسطل والنبي يعقوب وعطروت وكالية. ورأى بأن هذا السلب والنهب كان تعبيرا صارخا على فوضوية مقبلة وعدم انضباط في الميدان أثرت سلبا على مصير الفلسطينيين. فقد كان بالإمكان. حسب العارف. الاستفادة من الغنائم بطريقة منظمة تعود بالنفع على كل الفلسطينيين كإبقاء على المنازل في المستعمرات التي تم السيطرة عليها. لإيواء الفلسطينيين النازحين عن مدنهم. والاستفادة مما تركه الصهاينة من أدوات وآلات في تشييد صناعة قوية. وقد أورد بعضا من الأمثلة على ذلك. نذكر منها ما سجله حول مشاهداته لحالات السلب والنهب بعد إخلاء مستعمرة عطروت: «ولقد زرت المستعمرة المذكورة غداة اليوم الذي غادرها فيه سكانها. وكنت في صحبة الزعيم أحمد صدقي بيك الجندي قائد اللواء الرابع. رأيت القرويين يعملون فيها يد النهب. حتى المنازل فقد دمرها والبقر والخيل والدواجن نهبوها. وما لم يستطيعوا حملها بقروهم. وكان بالإمكان حفظه والإفادة منه ولاسيما في سبيل إطعام اللاجئين وإسكانهم هذا لو كان عندهم شيء من العقل والتنظيم»<sup>٨٧</sup>.

ويشير العارف إلى حوادث نهب أخرى عكست مشاهد قاسية. منها حالات السلب والنهب التي تعرضت لها الأحياء العربية المخلاة من سكانها.

فمما «زاد الطين بلة موقف البدو الأردنيين من المناضلين ومن المدنيين من سكان بيت المقدس. إذ راحوا يعملون في البيوت والمنازل العربية في الشيخ جراح ووادي الجوز والأحياء العربية الأخرى يد النهب والسلب... ولقد نهبوا وسلبوا ودمروا أكثر مما نهب الأعداء وسلبوا ودمروا. وما كان أحد من سكان بيت المقدس يستطيع الاعتراض على ما فعلوه. إذ كانوا يتهمون سكان فلسطين كلهم لا المقدسيين فقط بالجبين والخيانة»<sup>٨٨</sup>.

ويبدو أن حالات النهب طالت المكتبات أيضا. إذ يقول في ذلك «ولئن نسيت فلن أنسى أنني رأيت في أيدي الباعة وبعض الجهال أوراقا مقتلعة من كتاب «العقد الفريد» نهبه الناهبون من مكتبة أديب فلسطين الكبير المرحوم إسعاف النشاشيبي. راح الباعة يستعملون هذه الأوراق من أجل وضع الفواكه والخضار التي يبيعونها لزيائهم ونهبت مكتبته كما نهبت أكثر المكاتب المقدسية. وراح عدد كبير من الكتب العلمية والأسفار التاريخية والمجلدات نهباً مقسما بين البدو واليهود الأثمين»<sup>٨٩</sup>.

ولا يغفل العارف الإشارة لتقصير الزعماء العرب. فقد وجه لهم اللوم في أكثر من مناسبة. وعاب عليهم تخليهم عن فلسطين وعدم إمدادها بالسلاح والمال. وعدم الاستعداد لنجدها. ويلاحظ بأن العارف قد ألقى باللائمة على سقوط أحياء القدس الغربية بيد الصهاينة على قيادة الجيش العربي ممثلة بجلوب باشا وضباطه الإنجليز الذين كان بإمكانهم إنقاذ تلك الأحياء»<sup>٩٠</sup>.

## خاتمة

حاولت الورقة عرض بعض مما حواه سفر العارف عن أحداث النكبة في القدس. دون محاكمة التفاصيل أو نقدها. وجل ما ذكر العارف مما لا يستغنى عنه لفهم ما جرى. ولعل فيما رواه ما يستفز العقل ويدعو إلى التوقف والتساؤل. وتبقى المهمة التالية للباحثين إعادة قراءة ما كتبه بروح النقد والتمحيص وبرغبة جامحة في الفهم والتبصر.

٨٨ المصدر نفسه. ج ٢. ص ١٥.

٨٩ المصدر نفسه. ص ١٦.

٩٠ وجّه العارف نقداً أقل حدة للملك عبد الله بن الحسين.

٨٥ سورة التوبة. الآيات ٨٦-٨٧. المصدر نفسه. ص ١٧٧.

٨٦ المصدر نفسه. ص ٢٨٢.

٨٧ المصدر نفسه. ص ٤٠٩.